قراءة في تجربة مجموعة من القرّاء العراقيين بين الذاكرة والصورة والكتاب وبناء المعنى عبر كتب الإمام الشهيد

من الصورة التي تصنعها الذاكرة إلى الفكرة التي يكتشفها القارئ



لا تُعدّ معارض الكتب مجرد أماكن لعرض العناوين وبيعها، بل يمكن أن تتحول إلى ساحات حيّة للقاء الثقافات والأفكار والقراء وأصحاب النشر. ففي المعرض، لا يلتقي القارئ بالكتاب فحسب، وإنما يلتقي بعناوين جديدة، وأفكار مختلفة، وكتّاب وتجارب فكرية ولقاءات على هامش المعرض... قد لا يكون قد اقترب منها من قبل.

فاكتسب معرض بغداد الدولي للكتاب أهمية خاصة من هذا المنظار؛ وأصبح فضاء ثقافياً يلتقي فيه القرّاء العراقيون مع مجموعة واسعة من الإصدارات والموضوعات والتجارب الفكرية من العراق والمنطقة والعالم العربي والإسلامي. كما أن هذا الفضاء يفتح مجالاً لدراسة الطريقة التي يختار بها القارئ كتاباً معيناً، وما الذي يدفعه إلى قراءته، وكيف يمكن أن تتشكل علاقته بالنص وصاحبه عبر هذه التجربة.

هذه الدراسة الميدانية أُجريت في معرض بغداد الدولي للكتاب، عبر مقابلات نوعية مع مجموعة من القراء العراقيين الذين كانت لهم تجارب متفاوتة في التعرف إلى كتب الإمام الشهيد السيد علي الخامنئي وقراءتها. ولم يكن الهدف من المقابلات قياس مدى انتشار هذه الكتب، ولا إصدار حكم عام على موقف المجتمع العراقي منها، وإنما محاولة فهم تجربة القارئ نفسه: كيف تعرّف إلى هذه الكتب؟ ما الذي دفعه إلى اختيارها؟ ماذا كان يعرف عن صاحبها قبل القراءة؟ وماذا حدث لصورة الشخصية في ذهنه عندما انتقل من المعرفة غير المباشرة إلى مواجهة النص؟

تكشف روايات المشاركين أن الكتاب لم يكن دائماً نقطة البداية في علاقتهم بالإمام الشهيد السيد علي الخامنئي(رض). فقد سبقت القراءة، في كثير من الحالات، صورة تشكلت عبر الأسرة، والبيئة الدينية، ووسائل الإعلام، والخطب، ووسائل التواصل الاجتماعي، والأحداث التي عاشها العراق والمنطقة. ومن هنا يصبح معرض الكتاب لحظة مهمة في مسار هذه العلاقة؛ لأنه يوفر للقارئ فرصة الانتقال من المعرفة المتداولة عن الشخصية إلى البحث عن أفكارها في آثارها المكتوبة.

لذلك تركزت هذه الدراسة على سؤال أساسي: ماذا يحدث عندما ينتقل القارئ العراقي من صورة الشخصية التي تشكلت عبر الذاكرة والوسائط المختلفة إلى قراءة ما كتبه صاحب هذه الشخصية بنفسه؟ هل تؤكد القراءة الصورة السابقة؟ أم تعمّقها؟ أم توسّعها لتشمل أبعاداً فكرية وإنسانية وتربوية جديدة؟ وهل يمكن أن تتحول القراءة من مجرد معرفة بالآخر إلى إعادة فهم الذات والواقع والمسؤولية؟

من هنا، لا تنظر الدراسة إلى معرض بغداد الدولي للكتاب بوصفه مجرد مكان لجمع البيانات، بل بوصفه فضاءً للتفاعل الثقافي؛ فضاءً يلتقي فيه الكتاب بالقارئ، وتلتقي فيه الفكرة بتجربة القارئ العراقي، ثم يعاد بناء المعنى داخل سياقه الثقافي والاجتماعي الخاص.

وعليه، تحاول هذه الدراسة، عبر روايات عدد من المشاركين العراقيين وعبر الملاحظة بالمشاركة للباحث والمطالعة الشخصية، الاقتراب من تجربة القراءة بوصفها عملية تتجاوز تلقي المعلومات، لتبحث في مسار أكثر تعقيداً: من الصورة إلى النص، ومن النص إلى المعنى، ومن المعنى إلى التجربة الشخصية، وفي بعض الحالات إلى بناء الذات ونقل الأفكار إلى الآخرين.

بذلك يصبح معرض بغداد الدولي للكتاب نقطة انطلاق مناسبة لفهم سؤال أوسع: كيف يمكن للكتاب، داخل فضاء ثقافي عراقي، أن يتحول من مجرد عنوان معروض على رف إلى وسيلة للتعرف إلى فكر الآخر، وإعادة بناء صورته، وإنتاج معنى جديد له داخل تجربة القارئ؟

كيف يعرف العراقيون شخصية فكرية ودينية وسياسية إيرانية مثل الإمام الشهيد السيد علي الخامنئي(رض)؟ هل يعرفونه عبر الأخبار والخطابات ووسائل التواصل الاجتماعي؟ أم عبر الأسرة والبيئة الدينية؟ أم عبر الأحداث التي عاشها العراق والمنطقة؟ وماذا يحدث عندما ينتقل القارئ من سماع الكلام عنه إلى قراءة ما كتبه هو بنفسه؟ هذه الأسئلة كانت نقطة البداية في دراسة نوعية تناولت تجربة مجموعة من القرّاء العراقيين في التعامل مع مؤلفات السيد علي الخامنئي، وحاولت أن تقترب من سؤال يتجاوز معرفة الشخصية نفسها: ماذا يحدث للقارئ عندما ينتقل من معرفة الشخص إلى قراءة فكره؟

النتائج تكشف أن الكتاب لا يعمل هنا بوصفه مجرد وسيلة لنقل المعلومات، بل يمكن أن يتحول إلى مساحة لإعادة اكتشاف الشخصية، وإعادة تفسير الأفكار في البيئة الثقافية العراقية، وأحياناً إلى وسيلة للتأمل في الذات والمسؤولية.

قبل الكتاب... كانت هناك صورة

لم يدخل المشاركون إلى الكتاب وهم لا يعرفون شيئاً عن صاحبه. كانت لدى معظمهم صورة سابقة تشكلت عبر الأسرة، والبيئة الدينية، ووسائل الإعلام، والخطابات، وشبكات التواصل الاجتماعي، والأصدقاء، والجامعة، والأحداث السياسية والاجتماعية. بالنسبة إلى بعضهم، بدأت المعرفة منذ الطفولة داخل الأسرة. وبالنسبة إلى آخرين، ارتبط التعرف إليه بأحداث العراق والمنطقة، أو بمواقف وخطابات شاهدوا مقاطع منها عبر وسائل الإعلام ومنصات التواصل. ولهذا إن عملية القراءة لم تبدأ من الصفحة الأولى للكتاب، بل بدأت قبل ذلك بكثير. كان القارئ يدخل إلى الكتاب وهو يحمل معه صورة مسبقة: صورة القائد، أو العالم، أو الأب، أو الشخصية المقاومة، أو المرجع الديني، أو الإنسان المتواضع. وهنا تظهر أهمية السؤال: هل يظل الكتاب أسيراً للصورة السابقة، أم يستطيع أن يفتح صورة جديدة؟

عندما يصبح القارئ باحثاً عن العقل لا عن الشخص

من أكثر العبارات دلالة في المقابلات قول أحد المشاركين: «أريد أن أقرأ عقل قائد ترك أثراً في التاريخ...» هذه العبارة تختصر تحولاً مهماً. القارئ لم يعد يريد فقط أن يعرف: مَن هو الرجل؟ بل يريد أن يعرف: كيف يفكر؟ وهنا تبدأ المسافة بين الشخصية والفكر بالتقلص. فالإنسان الذي كان يُعرف عبر صورة أو خطاب أو خبر، يصبح موضوعاً للبحث عبر نصوصه وأفكاره.

إنها حركة من: الصورة إلى النص إلى الفكرة. وهذه الحركة تبدو مهمة خصوصاً في عصر أصبحت فيه الصورة الإعلامية قادرة على اختزال الشخصيات المعقدة في مجموعة محدودة من الصفات والانطباعات.

«أريد أن أتعلّم من مدرسته»

في مقابلة أخرى، عبّر أحد المشاركين عن دافعه للقراءة بعبارة بسيطة وعميقة: «أريد أن أتعلّم من مدرسته». هنا لا يعود الكتاب مجرد مصدر للمعلومات. فالقارئ لا يقول: «أريد أن أعرف ماذا قال»، بل يقول: «أريد أن أتعلّم». والفرق بين العبارتين كبير. في الحالة الأولى، يكون الكتاب موضوعاً للمعرفة. أمّا في الحالة الثانية، فيصبح الكتاب مصدراً للتعلم والتكوين. وعبر المقابلات ظهرت دوافع متعددة للقراءة: معرفة الفكر بصورة أعمق؛ فهم الشخصية بصورة أقرب؛ الاستفادة من التجربة؛ التعرف إلى أسلوب الحياة؛ البحث عن إجابات للأسئلة الدينية والاجتماعية؛ تطوير الذات؛ التعرف إلى طريقة التفكير؛ والبحث عن نموذج يمكن التعلم منه. وهكذا ينتقل الكتاب من «شيء نقرأه» إلى «شيء نتعلّم منه».

من الصورة الإعلامية إلى الإنسان المفكّر

بعض القرّاء دخلوا إلى النص وهم يحملون صورة محدودة عن الشخصية. كان بعضهم يعرفه بوصفه قائداً دينياً وسياسياً، بينما لم يكن يعرف بالضرورة أبعاده الفكرية أو العلمية أو الأدبية؛ لكن القراءة فتحت أمامه طبقات أخرى. في إحدى التجارب، لم تعد الشخصية مجرد قائد، بل ظهرت بوصفها: عالماً؛ قارئاً؛ مفكّراً؛ كاتباً؛ مربياً؛ وشخصية ذات أبعاد إنسانية. وهنا يمكن الحديث عن أربعة أشكال مختلفة لتغير الصورة: تثبيت الصورة، تعميقها، توسيعها، أو إعادة بنائها.

فليس كل قارئ يغير صورته السابقة. أحياناً يأتي الكتاب ليؤكد ما كان القارئ يعتقده. وأحياناً يضيف إليه عمقاً. وأحياناً يكشف له جوانب لم تكن حاضرة في الصورة الأولى. وفي بعض الحالات، تكون النتيجة إعادة بناء الصورة من أساسها.

«عندما أقرأ أشعر أن صوته يكرّر الكلمات»

ربما كان أكثر التعبيرات الإنسانية إثارة في المقابلات قول إحدى المشاركات: «عندما أقرأ أشعر أن صوته يكرر الكلمات». هذه الجملة تفتح لنا وظيفة أخرى للكتاب. فالكتاب هنا ليس مجرد حروف مطبوعة. إنه وسيلة لاستعادة الصوت. وهذا المعنى يكتسب أهمية خاصة بعد فقدان الشخصية. فحين لا يعود اللقاء ممكناً، ولا الخطاب الجديد متاحاً، تصبح الكتب والخطب والآثار المكتوبة وسائل للحفاظ على الصلة. القارئ لا يقرأ فقط لكي يعرف، بل يقرأ لكي يستعيد الحضور. وهنا يتحول الكتاب من: وسيلة معرفة إلى وسيلة ذاكرة وحضور.

ربما كان أكثر التعبيرات الإنسانية إثارة في المقابلات قول إحدى المشاركات: «عندما أقرأ أشعر أن صوته يكرّر الكلمات»، هذه الجملة تفتح لنا وظيفة أخرى للكتاب. فالكتاب هنا ليس مجرد حروف مطبوعة، إنه وسيلة لاستعادة الصوت

بعض المشاركين لم يتعاملوا مع مؤلفات الإمام الشهيد بوصفها كتباً منفصلة عن الواقع العراقي، بل ربطوا موضوعات مثل الهُوية، الاستقلال، المقاومة، التاريخ، التربية، المسؤولية، وبناء الإنسان بأسئلتهم وتجاربهم الخاصة

ماذا يحدث بعد الفقد؟

كشفت المقابلات أن تجربة بعض القرّاء مع الكتب تغيرت بعد استشهاد الإمام السيّد علي الخامنئي(رض). فقد أصبح الشعور بالفقد دافعاً لدى بعضهم للعودة إلى الكتب والبحث عن نصوص لم يقرأوها من قبل. وهنا ظهرت حالة يمكن تسميتها: «القارئ بعد الفقد» وهو القارئ الذي يبحث في النص عن شيء من العلاقة التي فقدها في الواقع. في هذه الحالة ينتقل القارئ من الفقد إلى البحث عن الآثار ثم إلى القراءة ثم إلى استعادة الذاكرة واستمرار العلاقة. وهذا يحول الكتاب إلى جزء من الذاكرة الشخصية والجماعية.

من قراءة الآخر إلى إعادة قراءة الذات

لكن السؤال الأهم ليس «ماذا عرف القارئ عن الإمام الشهيد السيّد علي الخامنئي؟»، بل ماذا فعلت هذه المعرفة بالقارئ نفسه؟ هنا تظهر إحدى أهم نتائج المقابلات. فبعض المشاركين لم يتحدثوا عن المعرفة فقط، بل ربطوا القراءة بتطوير الذات، وفهم الإنسان والتاريخ، وتحمل المسؤولية، والبحث عن نموذج للحياة.

ويقول أحد المشاركين: «لا أقرأه لمجرد الإعجاب بشخصية تاريخية وإنما لأنني أبحث عن الأفكار التي تساعدني على فهم الإنسان والتاريخ والواقع...». هذه العبارة تنقل القراءة إلى مستوى آخر. القارئ لا يقرأ الآخر فقط، بل يستخدم أفكار الآخر لفهم الإنسان، والتاريخ، والواقع، ونفسه. ومن هنا يمكن صياغة إحدى أهم النتائج التي خرجت بها الدراسة: قد تبدأ قراءة الآخر بوصفها بحثاً عن معرفة؛ لكنها قد تنتهي بوصفها إعادة قراءة للذات.

العراق ليس مجرّد مكان للقراءة

هناك نقطة أخرى لا يمكن تجاهلها. فالكتاب عندما يُقرأ في العراق لا يُقرأ في فراغ ثقافي. إنه يدخل إلى عالم مليء بالرموز والتجارب والذاكرة: كربلاء، عاشوراء، الشهادة، المقاومة، الأسرة، المرجعية، الهُوية، الاستقلال، المسؤولية، التاريخ، والعلاقة بين الشعوب. لذلك فإن القارئ العراقي لا يستقبل المفهوم كما هو فقط، بل يضعه داخل تجربته الخاصة. وهذا هو جوهر القراءة بين الثقافات. فالرسالة لا تنتقل من ثقافة إلى أخرى كما تنتقل قطعة مادية، بل تصل، تُفسَّر، تُقارن، تُربط بالتجربة، ثم تكتسب معنى جديداً. ومن هنا يمكن فهم أهمية الكتاب بوصفه جسراً ثقافياً بين التجارب الإيرانية والعراقية.

الكتاب بوصفه جسراً بين إيران والعراق

بعض المشاركين لم يتعاملوا مع مؤلفات الإمام الشهيد بوصفها كتباً منفصلة عن الواقع العراقي، بل ربطوا موضوعات مثل الهُوية؛ الاستقلال؛ المقاومة؛ التاريخ؛ التربية؛ المسؤولية؛ وبناء الإنسان بأسئلتهم وتجاربهم الخاصة. وهنا يتحول الكتاب إلى مساحة للحوار بين تجربتين. لا يعني ذلك أن القارئ يتخلى عن سياقه الثقافي. على العكس، إنما يعيد تفسير النص من داخل سياقه. وهذا بالضبط ما يجعل القراءة فعلاً ثقافياً وليس مجرد فعل تعليمي.

من القارئ إلى الناقل

في عدد من المقابلات، لم يتوقف أثر القراءة عند القارئ نفسه. فبعض القرّاء تحدّثوا عن الرغبة في نقل ما قرؤوه إلى الآخرين، أو إلى الأسرة والأبناء، أو استخدامه في التوعية والتربية. وهنا تبدأ دورة جديدة من كاتب، كتاب، قارئ، معنى جديد، قارئ آخر. وبذلك يصبح القارئ نفسه جزءاً من عملية إنتاج المعنى ونقله. وهذا يعني أن الكتاب لا ينتهي تأثيره عند الشخص الذي يقرأه. فقد ينتقل من كتاب إلى علاقة ثم إلى ذاكرة ثم إلى ميراث.

ما الذي تكشفه هذه التجربة؟

تكشف تجربة القرّاء العراقيين أن العلاقة مع الكتب الفكرية للشخصيات العامة لا يمكن اختزالها في سؤال: «هل قرأوا الكتاب أم لم يقرؤوه؟»، بل السؤال الأعمق هو: كيف يقرؤون؟ ولماذا يقرؤون؟ وماذا يحدث للصورة السابقة أثناء القراءة؟ وكيف يعيدون تفسير ما قرؤوه داخل عالمهم الخاص؟ وتشير المقابلات إلى أن هناك مساراً يمكن رصده: العائلة والإعلام والبيئة الدينية. في تكوين صورة أولية عن الشخصية والرغبة في معرفة أعمق إلى الدخول إلى الكتاب ثم اكتشاف الفكر وإعادة تفسير الشخصية وربط الفكر بالتجربة العراقية إلى تحويل المعنى إلى تعلم أو مسؤولية أو سلوك، ثم نقل المعنى إلى الآخرين. هذا المسار لا يحدث عند الجميع بالدرجة نفسها، ولا ينبغي عده نتيجة حتمية للقراءة؛ لكنه يظهر بوصفه أحد الأنماط المهمة في روايات المشاركين.

حين يصبح الكتاب لقاءً

ربما يمكن اختصار التجربة كلها في جملة واحدة: البعض لا يقرأ الكتاب لكي يعرف صاحبه فقط، بل لكي يفهم الإنسان والتاريخ والمجتمع ونفسه بصورة أفضل ويقترب من عالمه الفكري، ثم يعيد اكتشاف عالمه. وفي تجربة عدد من القرّاء العراقيين الذين تناولتهم هذه الدراسة، إن الكتاب بداية لعلاقة جديدة. وهنا تكمن أهمية القراءة بين الثقافات. فالكتاب قد يكون جسراً بين شخصين لم يلتقيا. وقد يكون جسراً بين زمنين. وقد يكون جسراً بين ثقافتين. وقد يتحول، في لحظة الفقد، إلى جسر بين الذاكرة والحاضر.

وعبر أصوات القرّاء العراقيين الذين شاركوا في هذه الدراسة، يبدو أن السؤال لم يعد فقط: «مَن هو الإمام الشهيد السيد علي الخامنئي في نظر العراقيين؟»، بل أصبح: «ماذا يحدث عندما يفتح القارئ العراقي كتابه، ويبدأ في قراءة ما وراء الصورة؟» والإجابة التي تقترحها هذه التجربة هي يبدأ التعرف إلى الشخص، ثم يبدأ اكتشاف الفكر، ثم تبدأ عملية إعادة المعنى. وفي بعض التجارب، تنتهي القراءة عند نقطة أبعد: عند سؤال الإنسان عن نفسه، وعن مسؤوليته، وعن الطريقة التي يريد أن يعيش بها ما قرأه. وهكذا قد لا يكون الكتاب نهاية العلاقة والتواصل، بل قد يكون بدايته الحقيقية وأكثر من صفحات مطبوعة بل قد يصبح صوتاً حين يغيب الصوت وذاكرة حين تشتدّ الحاجة إلى الذاكرة وسؤالاً حين يبحث القارئ عن معنى. وربما، في أبسط صورة، يصبح لقاءً مؤجلاً بين الكاتب والقارئ؛ لقاءً لا يحدث وجهاً لوجه، بل يحدث في المساحة التي يفتحها النص أمام الإنسان ليقرأ، ويفكّر، ويعيد بناء المعنى.

من هنا تبدأ الحكاية: من صورة في الذاكرة، إلى فكرة في الكتاب، ثم إلى معنى يعيد القارئ تشكيله داخل حياته.